عندما تلبس «السلفية الدينية» ثوب «المرجعية الإلهية»

▫ كيف تكون المرجعية الدينية التى أمر الله تعالى باتباعها مرجعية بشرية لا يُفهم الدين الإلهى ولا تُفهم أحكام شريعته إلا من خلالها ؟ ▫ هل من حق أى إنسان وصف السلفية بما وصفهم به النبى دون أن يُتهم بازدرائهم ؟ ▫ لماذا لا نجد تعريفًا لـ«السلفية» يجعل الصحابة هم «أئمة السلف» استنادًا إلى أمهات كتبهم التى دوّنوها فى حياة النبى ؟

د.محمد السعيد مشتهرى

هل يعلم المسلمون أتباع الفرق والمذاهب المختلفة، ومؤسساتهم الدينية الرسمية وغير الرسمية، أنهم جميعا أسرى «السلفية الدينية»، التى جعلت «أئمة السلف» يُفكرون ويتدبرون ويجتهدون نيابة عنهم، حسب المذهب العقدى أو التشريعى الذى ينتمون إليه، وهم تابعون مقلدون؟!

فإذا أردنا أن نعلم من هم «أئمة السلف»، أصحاب هذه «المرجعية الدينية» التى حكمت عقول المسلمين قرونا من الزمن، فلن نجد إجابة واضحة شافية، ففريق يقول إنهم «الصحابة» الذين أخذوا الدين عن رسول الله، وفريق أضاف إليهم «التابعين»، وآخر أضاف «تابعى التابعين»!!

فكيف تكون «المرجعية الدينية» التى أمر الله تعالى باتباعها، مرجعية بشرية لا يُفهم الدين الإلهى، ولا تُفهم أحكام شريعته، إلا من خلالها؟! فإذا ذهبنا إلى هذه المرجعية نتعرف عليها، وجدنا لكل فرقة من الفرق الإسلامية مرجعيتها، حسب المذهب العقدى الذى تنتمى إليه، ولكن من هم أئمة السلف، أصحاب هذه المرجعيات، الذين يعتبرهم أئمة الخلف خطًا أحمر يحرم الاقتراب منه أو مسه بسوء؟!

هنا سنجد أنفسنا أمام بحر متلاطم الأمواج، فإذا ذهبنا إلى التعريف اللسانى أو الاصطلاحى لكلمة «السلف»، فلن نصل إلى قرار، فكل أصحاب أمهات كتب الفرق والمذاهب المختلفة، الذين ظهروا بداية من القرن الثانى وحتى القرن العاشر الهجرى، هم من «السلف الصالح»، كلّ حسب الفرقة والمذهب العقدى الذى ينتمى إليه، فالسلف الصالح الذى ينتمى إليه أهل السُنة، غير الذى ينتمى إليه الشيعة!!

فإذا ذهبنا إلى تعريف فرقة أهل السنة والجماعة لمصطلح «السلف الصالح» لن نصل أيضا إلى قرار، وإذا اعتمدنا التعريف القائم على الرواية المنسوبة إلى النبى، أن خير القرون الثلاثة الأولى، أخرجنا أصحاب أمهات الكتب الذين جاؤوا فى القرون الأخرى من دائرة «الصلاح»، وذلك بنص الرواية: «ثم يجىء قوم، أى بعد القرون الثلاثة، تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»!!

إن هذه الرواية، المتفق عليها بين البخارى ومسلم، يشرحها أئمة السلف بقولهم: إنه سيجىء بعد القرون الفاضلة أقوام «لا يؤتمنون على شهاداتهم وأيمانهم، ويكثر فيهم الكذب»، فإذا علمنا أن هناك من أهل السنة من يُعرّفون «السلفية» بأقوام ظهروا بعد القرن الثالث الهجرى، فهل من حق أى إنسان وصفهم بما وصفهم به النبى دون أن يُتهم بازدرائهم ؟!

إن «الحنابلة»، أتباع أحمد بن حنبل «ت ٢٤١ هـ»، يعتبرون أن ظهور «السلفية» كمذهب عقدى متكامل الأركان، كان فى القرن «الرابع» الهجرى، ثم تجدد ظهورها فى القرن «السابع» على يد ابن تيمية، مع بعض التعديلات، ثم ظهرت مرة أخرى فى القرن «الثانى عشر» الهجرى على يد محمد بن عبد الوهاب، مع بعض التعديلات، ثم أصبحت «الوهابية» هى الممثل الرسمى للسلفية إلى يومنا هذا!!

ولكن، لماذا لا نجد تعريفا لـ«السلفية»، يجعل الصحابة هم «أئمة السلف»، استنادا إلى أمهات كتبهم التى دوّنوها فى حياة النبى، أو فى حياة الخلفاء الراشدين، أو فى عصر الخلافة الأموية، على أقصى تقدير؟!

الجواب: لأن القرن الأول الهجرى، لم يشهد مطلقا وجود أى مدونة لهؤلاء السلف، لأنهم لم يولدوا بعد، هذا بالإضافة إلى أن السمة التى كانت تميز هذا القرن، باستثناء الربع الأول منه، هى سفك الدماء بغير حق، وإشعال أزمة التخاصم والتكفير بين أتباع التوجهات العقدية المختلفة، وفى مقدمتهم من سماهم التاريخ بعد ذلك بأهل السنة والشيعة!!

هذه بعض النصوص المتعلقة بأزمة التخاصم بين السنة والشيعة، التى يعترف بصحتها أهل السنة قبل الشيعة

ولذلك نسألهم: أين المرجعية «السلفية الدينية»، التى دونت فى القرن الأول الهجرى؟! ولماذا لم تظهر أمهات كتب الفرق والمذاهب العقدية المختلفة فى القرن الأول الهجرى؟! وإذا كانت هناك «فرقة ناجية»، فلماذا لم تظهر أمهات كتبها فى القرن الأول الهجرى، الذى يدّعون أنه كان خير القرون؟!

ولكن هل يُعقل أن تصل أزمة التخاصم والتكفير بين المسلمين، فى القرن الأول الهجرى، إلى أن يلعن بعضهم بعضا على منابر الدعوة الإسلامية، وبأمر من الخلافة الإسلامية؟!

نعم يُعقل، فبعد وفاة النبى مباشرة افترق الصحابة إلى فريقين، فريق آمن بولاية وخلافة على بن أبى طالب، ودليله أن النبى نص على ذلك صراحة، وفريق أنكر النص على خلافة علىّ، وناصر استخلاف أبى بكر، والأول سُمى بعد ذلك بـ«الشيعة»، والثانى بـ«أهل السنة»!!

ولكن ماذا نفعل فى هذه المصيبة! لقد اتفق المؤرخون ورواة السير أن خليفة المسلمين معاوية بن أبى سفيان كان يصعد المنبر، ويلعن علىّ بن أبى طالب، وكان ولاة الأقاليم يقتدون به فى هذا، حتى إن المسعودى ذكر فى «مروج الذهب»، أنهم جعلوا لعن علىّ سنّة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير!!

إذن فهل يمكننا اتهام أمهات الكتب التى ذكرت هذه الواقعة، بأنها تساعد على تدعيم أزمة التخاصم بين المسلمين، وازدراء كل طائفة الطوائف الأخرى؟!

لقد ورد فى صحيح مسلم، شرح النووى، عن سهل بن سعد قال: استعمل على المدينة رجل من آل مروان، قال فدعا سهل بن سعد فأمره أن يشتم علياً، قال: فأبى سهل، فقال له: أما إذ أبيت فقل: لعن الله أبا التراب، فقال سهل: ما كان لعلى اسم أحب إليه من أبى التراب... إلى آخر الرواية!!

يقول الدكتور موسى شاهين لاشين، فى «فتح المنعم شرح صحيح مسلم»: «أمر معاوية بن أبى سفيان سعدا، والتقدير: أمره أن يسب عليا، فامتنع، فقال له: ما منعك؟! ويحاول النووى تبرئة معاوية من هذا السوء، فيقول: قال العلماء: الأحاديث الواردة التى فى ظاهرها دخل على صحابى يجب تأويلها...»!!

ثم يرد الدكتور موسى على النووى بقوله: «وهذا تأويل واضح التعسف والبعد، والثابت أن معاوية كان يأمر بسب علىّ، وهو غير معصوم، فهو يخطئ، ولكننا يجب أن نمسك عن انتقاص أى من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وسب علىّ فى عهد معاوية صريح فى روايتنا التاسعة».

ثم جاء الدكتور موسى فى الرواية التاسعة فقال: «فأمره أن يشتم عليا: أى أن يسب عليا رضى الله عنه باسمه، فقال له: أما إذ أبيت فقل: لعن الله أبا التراب: أى حيث أبيت سبه باسمه فسبه بكنيته (أبى التراب)، ويلمحون بذلك إلى تنقيصه بهذه الكنية»!!

والسؤال: وهل الانتقاص والتنقيص إلا ازدراء؟!

ويقول ابن سعد «ت٢٣٠ هـ» فى الطبقات الكبرى: «كان الولاة من بنى أمية قبل عمر بن عبد العزيز يشتمون عليا رحمه الله فلما ولى عمر أمسك عن ذلك»!!

ويحكى الطبرى «ت٣١٠ هـ» فى تاريخه، وابن الأثير «ت٦٣٠ هـ» فى الكامل، قصة قتل جند معاوية ستة من أنصار علىّ بن أبى طالب، ومنهم الصحابى حجر بن عدى، فقالوا لهم قبل قتلهم: إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علىّ واللعن له، فإن فعلتم تركناكم، وإن أبيتم قتلناكم... قالوا اللهم إنا لسنا فاعلى ذلك، فأمر فحفرت القبور، وأحضرت الأكفان، فلما كان الغد قتلوهم!!

ويقول **الزمخشرى** «ت٥٣٨ هـ»، فى الكشاف، عند تفسيره لقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى... الآيَة» وجدناه يقول: «والبغى: طلب التطاول بالظلم، وحين أسقطت من الخطب لعنة الملاعين على أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه، أقيمت هذه الآية مقامها، ولعمرى إنها كانت فاحشة ومنكرا وبغيا، ضاعف الله لمن سنها غضبا ونكالا وخزيا»!!

فإذا ذهبنا إلى ابن تيمية «ت٧٢٨ هـ»، فى منهاج السنة النبوية، الجزء الخامس، نجده ردّ أحد عشرة رواية فى سب علىّ إلا رواية مسلم، وقال عنها: «وأما حديث سعد لما أمره معاوية بالسب فأبى فقال ما منعك أن تسب على بن أبى طالب.. فهذا حديث صحيح، رواه مسلم فى صحيحه»!!

ثم قال فى الجزء السابع: «ومعلوم أن الله قد جعل للصحابة مودة فى قلب كل مسلم، لاسيما الخلفاء رضى الله عنهم، لا سيما أبو بكر وعمر، فإن عامة الصحابة والتابعين كانوا يودونهما، وكانوا خير القرون، ولم يكن كذلك على بن أبى طالب، فإن كثيرا من الصحابة والتابعين كانوا يبغضونه ويسبونه ويقاتلونه»!!

وقال ابن حجر «ت٨٥٢ هـ» فى **فتح الباري**، شرح صحيح البخارى: «ثم كان من أمر على ما كان، فنجمت طائفة أخرى حاربوه، ثم اشتد الخطب فتنقصوه، واتخذوا لعنه على المنابر سنة، ووافقهم الخوارج على بغضه وزادوا حتى كفروه»!!

أما **السيوطى** «ت٩١١ هـ» فقد ذكر فى تاريخ الخلفاء: «كان بنو أمية يسبون علىّ بن أبى طالب فى الخطبة، فلما ولى عمر بن عبد العزيز أبطله، وكتب إلى نوابه بإبطاله، وقرأ مكانه (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ... الآية)، فاستمرت قراءتها فى الخطبة إلى الآن»!!

هذه بعض النصوص المتعلقة بأزمة التخاصم بين السنة والشيعة، التى يعترف بصحتها أهل السنة قبل الشيعة، بداية من القرن الأول الهجرى، وحتى القرن العاشر، لبيان أنه لم يستطع خليفة من الخلفاء، ولا مؤسسة دينية رسمية فى بلاد المسلمين إلى اليوم، أن تطهر أمهات الكتب من هذا «الازدراء» الموجود بين الفرق الإسلامية، والذى يعاقب عليه القانون اليوم!!

إن الحديث عن وجود علاقة بين المرجعية «السلفية الدينية»، ومرجعية عصر الرسالة لا أساس له من الصحة، فبين عصر الرسالة وعصر تدوين هذه المرجعيات السلفية المذهبية ما لا يقل عن قرنين من الزمن، ثم أصبح المسلمون يتبعون مرجعيتين:

الأولى: مرجعية إلهية، شهد النبى تدوين نصوصها فى كتاب، هو «كتاب الله».

والثانية: مرجعية بشرية، دُوّنت بعد وفاة النبى بقرنين من الزمن، شهد تدوينها أئمة السلف، كلٌ حسب الفرقة التى ينتمى إليها، وحسب مدرسة الجرح والتعديل، والتصحيح والتضعيف، التى يتبعها المحدثون الذين ينتمون إلى هذه الفرقة!!

فكيف يعبد المسلمون ربهم، بالدين الذى ارتضاه لهم أئمة السلف، والذى مرجعيته أمهات كتب الفرق والمذاهب المختلفة، وما يُسمى بالمصدر الثانى للتشريع، لا الدين الذى ارتضاه الله تعالى لهم، ومرجعيته «كتاب الله»؟!

لقد ظهرت «السلفية الدينية»، وظهر «أئمة السلف»، وظهر مصطلح «السلف الصالح»، بظهور المذاهب العقدية والكلامية المختلفة، بعد خير القرون، وكل طائفة تعلن اتباعها لـ«السلف الصالح»، وتقصد الصحابة والتابعين، فأصبح الصحابة والتابعون قسمين: سلف صالح، وسلف طالح، بناء على المعايير والقواعد العقدية لكل طائفة!!

والمصيبة الكبرى التى حملتها المرجعية «السلفية الدينية»، القول باستحالة فهم «كتاب الله» بمعزل عنها، بدعوى أنها التى حملت «السنة النبوية» المبينة والمكملة لأحكام «كتاب الله»، وأن مخالفة هذه المرجعية أو ازدراءها يعتبر معصية لله ورسوله، يُحكم على صاحبها بالردة، ويُستتاب، فإن تاب وإلا قتل!!

لقد لبست المرجعية «السلفية الدينية» ثوب المرجعية الإلهية، بدعوى حب الرسول، والاقتداء بسنته، والتحلى بصفاته الخُلقية والخِلقية، فهو النبى الذى لا ينطق عن الهوى: «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى»، وبناء عليه حملت المرويات المنسوبة إلى النبى، والفتاوى المنسوبة إلى السلف الصالح، التى يستند إليها اليوم أئمة الخلف فى إباحة كثير من المسائل التى حرمها الله فى كتابه، بدعوى اتباع «السنة النبوية»!!

لقد تساوت «المرجعية الإلهية» التى نطق النبى فيها بـ«الآية»، التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، مع «المرجعية السلفية» التى نطق الرواة فيها بـ«الرواية»، التى أتاها الباطل من بين يديها ومن خلفها، فاختلطت الدين الإلهى بالتدين البشرى، وأصبحت الرواية حاكمة على الآية، وأصبح ازدراء التدين البشرى جريمة يُعاقب عليها القانون!!

إن أخطر ما فى المرجعية «السلفية الدينية»، أنها أوقفت العمل بفاعلية نصوص «الآية القرآنية»، المتجددة مع إمكانيات وتحديات كل عصر، فظل المسلمون أسرى هذه المرجعية السلفية، لا تجديد ولا إبداع ولا اجتهاد، فكانت هى البيئة الحاضنة للتطرف الدينى، الذى ولد الإرهاب فى أحضانه!!

إن أخطر ما فى المرجعية «السلفية الدينية» أنها خدعت المسلمين، فبدأت بإفهامهم استحالة فهم كتاب الله بمعزل عن «السنة النبوية»، ثم باستحالة فهم «السنة النبوية» بمعزل عن أئمة الحديث، ثم باستحالة فهم «الحديث النبوى» بمعزل عن أصول الفقه، ثم باستحالة فهم «المنظومة الفقهية» بمعزل عن فهم أئمة الخلف لأحكامها، ثم إذا ذهبت إلى «أئمة الخلف» وجدتهم فرقا ومذاهب متخاصمة متصارعة!!

إن لكل فرقة من الفرق الإسلامية أئمتها، ولكل مذهب من مذاهب الفرقة الواحدة أئمته، ولكل جماعة أو جمعية دينية أئمتها، ولكل منظمة إرهابية أئمتها، وكل هؤلاء الأئمة يقولون نحن نتبع السلف الصالح، وكتاب الله وسنة رسوله، فإذا قلنا لهم: أين كتاب الله؟! أخرجوا لنا كتابا واحدا، فإذا سألناهم وأين سنة الرسول؟! أخرجوا لنا آلاف الكتب لأئمة السلف!!

إن «كتاب الله» ينص على أنه قادر على إخراج الناس من الظلمات إلى النور: «كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ».

فلماذا هجر المسلمون كتاب الله، واتخذوا المرجعية «السلفية الدينية» دينا، فخرجوا من النور إلى الظلمات، واستحلوا الدماء بغير حق، وهم يعلمون أن هذه المرجعية هى البيئة الحاضنة للتطرف الدينى، الذى أفرز الإرهابيين، الذين نراهم بأعيننا يفسدون فى الأرض، بدعوى الدفاع عن الإسلام، وإعادة الخلافة الإسلامية إلى الأرض؟!

فهل كانت الخلافة الإسلامية، وفق هذه المرجعية السلفية، إسلامية؟!

لقد قاد الصراع المذهبى القائم بين أئمة السلف، على مر العصور، إلى صراع فكرى، يزدرى أتباع كل مذهب المذاهب الأخرى، ولقد فرضت «منظومة الآبائية»، على الأبناء كراهية الآخر، والتعصب لميراث الآباء، والقتال فى سبيله حتى الموت!!

وعندما تكون «منظومة الآبائية» هى البيئة الحاضنة للصراع الدينى بين الملل المختلفة، وازدراء أتباع كل ملة الملل الأخرى، ثم تقوم كل ملة بسن القوانين التى تجرم «ازدراء الأديان»، بدعوى الدفاع عن دين الله، هنا يجب أن نعلم أن كل ملة تدافع عن تدينها المذهبى، وليس عن دين الله!!

إن الدفاع عن دين الله يكون بالعلم والتربية، وبالحوار العلمى بين أتباع الملل والديانات والمذاهب المختلفة، فما أسهل أن تسن قانونا يعاقب على الازدراء، وما أصعب على المذهبية أن تواجه الازدراء بالحوار العلمى!!

السيوطى

ولد فى عصر كثر فيه العلماء الأعلام الذين نبغوا فى علوم الدين على تعدد ميادينها، وتوفروا على علوم اللغة بمختلف فروعها، وأسهموا فى ميدان الإبداع الأدبى، فتأثر السيوطى بهذه النخبة الممتازة من كبار العلماء، فابتدأ فى طلب العلم سنة 864هـ، 1459م، ودرس الفقه والنحو والفرائض، ولم يمض عامان حتى أجيز بتدريس اللغة العربية.

الزمخشرى

إمام فى الحديث، والتفسير، والنحو، والبلاغة. وصاحب تآليف عظيمة فى اللغة والبلاغة، ورغم أن الزمخشرى كان فارسيا فإنه كان يفضل اللغة العربية، وألف فيها تآليف غنية.

فتح البارى

فى شرح صحيح البخارى، هو كتاب ألفه الحافظ ابن حجر العسقلانى، وهو من أهم كتب تفسير الحديث وأجمعها فى شرح صحيح البخارى. كتبه فى أكثر من 25 سنة، حيث بدأ فى أوائل 817هـ، وكان عمره 44 سنة، وفرغ منه فى رجب سنة 842هـ.